
9
قصص
الصحابة
الراعي
الأمين
سلوى العنانى
دار اللطائف

الراعى الأمين

(عبد الله بن مسعود)

[أخذتُ من فَمِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورةً لا ينازعني فيها أحدٌ] عبد الله بن مسعود

كان الوقتُ ضحًى وقد اجتمع سادةُ قريشٍ ، ووجهاؤها حول الكعبةِ فى مجموعاتٍ تتناقش فى أمورِ تجارتها ، ومبادلاتها ..

لقد اطمأنوا إلى أن العبيدَ ، والخدمَ قد خرجوا إلى المراعى ، يدفعون أمامهم الإبلَ ، والأغنامَ .. كما اطمأنوا إلى أنَّ هناك من الإماءِ من يقمن على خدمةِ الدورِ ، وسيداتِ البيوتِ ...

جاء هؤلاء كما هى العادة يجلسون معًا ، للمشورة ، والحديث ، وقبل أن يأخذ كلٌّ منهم مكانه متوجها إلى صنمه يقدم له التحية ، ويسأله العونَ ، والتوفيقَ .. نَعَمْ .. فقد كانَ لكلِّ مجموعةٍ صنمٌ خاصٌّ بها .. وأحيانا أخرى يكون لكل

مسألةُ صنمٍ ..

فهذا الصنمُ يسألونه الرِّبْحَ الوفيرَ ..

وذاك يتوسلون إليه ، كي يَشْفي مريضا ..

أما الثالث فإنهم يقدمون له القرابين ، كي تُنجب نساؤهم ذكورا ، يكونون عونا لهم وسَنَدًا ..

وبينما كان هؤلاء السادةُ جلوسًا يتناقشون ، ويتضاحكون .. إذا بصوتٍ يرتفعُ بقراءةٍ غريبةٍ :

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. الرَّحْمَنُ .. عَلَّمَ الْقُرْآنَ .. خَلَقَ الإِنْسَانَ .. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ.. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾

[الرحمن : 1 - 5]

والتفت الجميعُ إلى مصدر الصوتِ متعجبين . إنه هذا الفقيرُ النحيفُ القصيرُ القامةِ .. وتبادلَ سادةُ قريشٍ نظرةَ تعجبٍ ، وهم يتساءلون : أليس هذا شيئا مما يقوله محمدٌ ، ويدعي أنه قد أوحي إليه من السماء ..

ومضى الفتى يقرأ رافعا صوته :

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ.. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .. أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ .. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : 6 – 9] .

وقام الجمعُ إلى الفتى يضربون وجهَه ، ورأسَه وجِسْمَه ، وهو ماضٍ فى قراءته لا يقطعها حتى غلبوه ضربا ففرَّ منهم راجعا إلى أصحابه .. ومـا إن دخلَ عليهم حتى أسرعوا يمسحون جروحَه ، ويغسلون ما سال من دَمِه ، وقالوا له :

هذا الذى خشيناه عليك .

فرد عليهم (عبد الله بن مسعود) :

بأنه يتمنى أن يعود إليهم فيُسمعهم من القرآنِ مـا يثير غضبهم مرة أخرى .

فمن هو (عبد الله بن مسعود) وكيف دخلَ الإسلامَ ؟..

وكيف كـان لقاؤه الأول بالرسـولِ (عليـه الصلاة والسلام) .

كان (عبد الله) غلاما أجيرا يرعى غنمَ واحـدٍ مـن سادةِ

قريش فى أطراف مكة .. وبينما هو جالسٌ يوما يراقبُ أغنامَه مرَّ به النبىُّ الكريم ، ومعه صاحبُه الصديقُ (أبو بكر) فطلبا منه بعض اللبنِ ورفضَ الغلامُ أن يسقيهما قائلا : إنى مؤتمن ولست ساقيكما ..

يا لأمانة الفتى !!

فطلب منه النبىُّ أن يأتيه بشاة ليس فيها لبنٌ .. ومسحَ النبىُّ على ضرعها ، فامتلأ لبنًا ، فحلبَه ، وشَرِبَ ، ومعه أبو بكر ، وكذلك الفتى الذى تعجب مما رأى وانبهر ..

فسأل (عبد الله) محمدًا أن يعلمه بعضَ هذا وقد ظنه سِحْرًا. فقال له النبى الكريم : "إنك غلام مُعَلَّم" .

وتبع (عبد الله بن مسعود) النبىَّ، وأعلن شهادته أمامه ، ليكون سادسَ من يدخل فى دين الإسلام .

هكذا تحول مصيرُ الفتى الأمين الذى رفض أن يفرِّط فى بعض اللبنِ المملوك لسيدِه ..

وبعد أن كان أجيرًا يرعى الغنمَ ، أصبح أكثر المسلمين

عِلْما بالقرآن ، والسنة والفقه ..

وظل عبدُ الله بن مسعود قريبا من النبيِّ صلى الله عليه وسلم .. حتى قال هو عن نفسه : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (إِذْنُكَ عَلَيَّ أن يُرْفَعَ الحِجَاب وأَنْ تَسْتَمِعَ سِوَادِي حتى أنهاك) .

وقال الصحابى أبو موسى الأشعرى عن مكانة عبد الله ابن مسعود من النبى (إنه كان ليدخل إذا أحجبنا ويشهد إذا غبنا).

ويقول فى رواية أخرى : لقد رأيت النبى عليه السلام وما أرى إلا ابن مسعود من أهله ..

فقد لازمَ (عبدُ الله بن مسعود) النبيَّ الكريم ولم يكن يفارقه .. وكان يحفظ كل ما يسمعه منه خاصة القرآن الكريم حتى أوصى الرسولُ أصحابَه أن (تمسكوا بعهد ابن أمّ عَبْد) أى (عبد الله بن مسعود) .. كما أوصاهم أن يحاكوا قراءته ، ويتعلموا منه كيف يُتلى القرآن ؟

وفي الحديث الصحيح :

(من أحبَّ أن يَسْمَعَ القرآنَ غضًّا كما أُنزل فليسمعْه من ابن أم عبد ، ومن أحبَّ أن يقرأ القرآنَ غضًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) .

كان صوتُ عبدِ الله بن مسعود نديًّا يملأ القلوبَ خشوعا ، ويحكي لنا عبد الله أن الرسولَ قال له : (اقرأ عليّ) قلت يا رسول الله أأقرأ عليك وعليك نزل ؟! ، قال : نعم . فقرأت سورة النساءِ حتى أتيت إلى هذه الآية :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : 41]

قال عليه السلام : حَسْبُك الآن فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان الدمعَ) .

وإلى جانب إجادته لقراءةِ القرآنِ .. كان عبدُ الله بن مسعودٍ فَصيحًا ، قويَّ الحجة ، واضحَ البيان ، قويَّ العبارةِ ..

خَطَبَ النبيُّ يومًا خطبةً وَجيْزَةً ثم قال : قُمْ يا أبا بكر ..

فقام فَخَطَبَ دون النبيِّ عليه السلام .. فقال : قُمْ يا عمر : فاخطب .. فخطب عمر فقصَّر .. ثم قال قم يا فلان فاخطب ، إلى أن قال : قم يا بن أم عبد (يعني عَبدَ الله بن مسعود) فقام عبد الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

"أيها الناسُ إن الله ربنا .. وإن الإسلامَ ديننا وإن هذا نبينا ـ وأشار بيده إلى النبى ـ رضينا ما رضى الله لنا ورسوله والسلامُ عليكم" فقال الرسولُ عليه السلامُ : (أصاب ابن أم عبد ، وصدق ابن أم عبد) .

أحبَّ النبيُّ صاحبَه عبدَ الله بن مسعود وأولاه ثقة كبيرة ، وقرَّبه منه حتى أنه كان يسمحُ له بِطَرْقِ بابِه وقتما شاء .. ليلا ، أو نهارًا.. ولازم (ابن مسعود) النبيَّ ، وشَهِدَ معه كل أسفارِه ، وكل غزواته ، وكان له فيها بطولاتٌ عظيمةٌ ..

كان عبدُ الله فتى مُعْدما .. ناحلَ الجسم .. ضامرَ الأطراف ، لا جاهَ له ولا عشيرةَ ، لكنه كان أمينا .. مؤتمنا.. وهذه هى ملامحُ الرجولةِ المبكرةِ ، والشجاعةِ ، والنفسِ السَوِيّةِ .. وهكذا كان عبدُ الله بعد إسلامِه .. فرفعه

الإسلامُ، ومنحه شرفًا، وعِلْمًا ووضعه فى مقدمةِ صحابةِ رسولِ الله ..

لقد تنبأ له الرسولُ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ يوما بأنه سيكون (غلاما مُعَلَّما) .. وقد كان، فقد علمه ربه، ورباه النبيُّ فأضحى فقيه الأمة، وعميد حَفَظَةِ القرآن ..

كان قبل إسلامه غلاما منزويا يشعرُ أن فقرَه يضعُه فى ظلِّ الحياة، وعلى هامشها، لكنه أصبح بعد إسلامه جريئًا فى الحقِّ يرفعُ صوتَه فى داخلِ الكعبةِ بآياتِ القرآنِ على مسمعٍ من كفارِ قريشٍ .. ولما لا .. وقد اقتنع بأنه كلامُ الله الذى أُنزلَ على نبيه، ورسوله؟!..

لقد أثابه الله على هذه الشجاعةِ، والمخاطرة، وأعزَّه بالقرآن، وميزه بحفظه حتى أنه قال عن نفسه : (أخذت من فَمِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورةً لا ينازعنى فيها أحدٌ) .

كان (لابن مسعود) مكانةٌ خاصةٌ فى نفس النبىِّ .. كان

يحبه ويثق فى تقواه حتى أنه قال عليه السلام :

"اهدوا هَدْى عمار (عمار بن ياسر) وتمسكوا بعهد (ابنِ أمِّ عبد) (عبد الله بن مسعود) .

وهو القائل : "رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد وسخطت لأمتى ما سخط لها ابن أم عبد" .

بعد وفاةِ النبيِّ الكريمِ عاشَ عبدُ الله (موسوعةً) تحفظُ كلَّ ما نَزَلَ على النبيِّ من وحى ، وكل ما قاله من حديث ، أو أتاه من فعل ، وكان مرجعَ الجميع فى أى خلافٍ بينهم..

وقد أولاه الخلفاءُ - أبو بكر ، وعمرُ وعثمانُ - رعايةً خاصةً ، عملا بوصيةِ النبيِّ ، واقتداءً بسلوكِه إلا أنَّ عبدَ الله بن مسعودٍ كان يخافُ أن يحدِّث عن النبيِّ بعد وفاته .. وكان إذا حَرَّك شفتيه ليقول : (سمعت رسول الله يقول) أخذته الرعشةُ والاضطرابُ ، وجرى عرقُه وتلعثمَ .. وينْهى حديثه قائلا : أو نحو ذلك .. أو شبه ذا .

فقد كان يخشى أن ينسى حَرْفًا ، أو لفظا .. أو يضع كلمةً

مكانًا أُخرى .. لقد كان حبُّه ، وإجلاله ، وتوقيره للنبى ليس له مدى ..

ومع هذا الدورِ العظيم فى حِفْظِ كتابِ الله وسنة نبيه .. كان (لابن مسعود) دورٌ هام فى إرساء دعائم دولة الإسلام بعد أن اتسعت مساحتها وخضعت لها كثيرٌ من البلدان .

وكان الخلفاءُ الراشدون يوكلون إلى (ابن مسعود) المهامَّ الكُبرى خاصةً فيما يتعلق بالفتوى والقضاء وأمور بيت المال ..

وفى خطابه لأهلِ الكوفةِ يقولُ (الفاروق عمر) رضى الله عنه :

(إنى قد بعثت (عمَّار بن ياسر) أميرًا و(عبدَ الله بن مسعود) مُعلِّمًا ووزيرًا ، وهما من النجباء من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى) ..

هكذا كان (عمرُ) رضى الله عنه عارفا بقدْرِ (عبد الله بن مسعود) واثقا فى علمه وحُسْن تفقهه فى الدين .

وقضى (ابن مسعود) سنواتٍ طويلةً فى الكوفةِ .. قاضيا .. ومُفتيا .. وقائما على بيت مال المسلمين .. تغير فى أثناء وجوده ستةٌ من الولاة .. يستشيرونه وينزلون على رأيه .. لم لا .. وهم يعلمون أنه أحد المُبَشَّرين بالجنة .

ألم يقل عليه صلواتُ الله وسلامه :

"لرِجْلا عبد الله فى الميزان أثقل من (أحد) " .

نعم قال رسولُ الله ذلك عندما ضَحِكَ بعضُ الصحابة من نحافة ساقيه ..

يروى أحد الصحابة : كنا عند (علىٍّ بن أبى طالب) رضى الله عنه فذكر بعضَ قولِ (ابن مسعود) وأثنى القوم عليه.. ثم قالوا: يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقا ولا أرفق تعليما ، ولا أحسنَ مجالسةً، ولا أشدَّ ورَعًا من (عبدِ الله بن مسعود) .

فقال كرَّم الله وجهه : ناشدتكم الله إنه لصدق من قلوبكم ..؟

قالوا : نعم .

فقال : (اللهم إنى أشهدك ، اللهم إنى أقولُ فيه مثل ما قالوا أو أفضل) .

أما (أبو موسى الأشعرى) المعروفُ بورعه وتقواه وعِلْمه فكان يطلبُ من الناس ألا يسألوه (عن شيءٍ ما دام هذا الحَبْرُ بين أظهركم) ويعنى (عبد الله بن مسعود) .

هذا هو (عبد الله بن مسعود) .. الذى بشَّره النبىُّ الكريمُ بالجنةِ ضِمْنَ من بَشَّرَ ..

فقد كان وثيقَ اليقينِ ، كبيرَ القلبِ ..

عظيمَ النفسِ ..

رجلٌ فتحَ الله عليه بنورِ الهُدى ..

وصاحبَ النبىَّ وأخذ عنه ..

وكان القرآنُ هو دستوره الوحيد ..

ومن بين كلماته الجامعة :

"خيرُ الغنى غِنى النفس .. وخيرُ الـزادِ التقوى ، وشرُّ العمى عمــى القلب ، و أعظـم الخطايـا الكـذبُ ، وشرُّ المكاسب الرِّبا ، وشرُّ المأكل مالُ اليتيم ، ومن يَعْـفُ يَعْـفُ الله عنه ومن يَغْفِرْ يغفرِ الله له" .

ومن أقوالِه التى تعكس حبه للعلم وإيمانه بأهميته :

(عليكم بالعلم قبل أن يُقْبض وقَبْضُه ذِهَابُ أهله ، فـإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إليه ، وستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعونكـم إلى كتـابِ الله وقـد نبـذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإياكم والتعجُّل وإياكم والتنطُّع) .

أما خبرة (عبد الله بن مسـعود) بالحياة وبطبيعـة البشـر فتعكسها هذه المقولة الحكيمة التى نختم بـها حديثنا عـن هذا الصحابى العظيم .

يقول :

(إذا رأيتم أخاكم قَارَفَ ذنبا فلا تكونوا أعوانا للشيطان

عليه فتقولوا : اللهم اخزه .. اللهم العنه ، ولكن سلوا الله العافية ، فإنَّا أصحابَ محمدٍ عليه السلامُ كنا لا نقول فى أحدٍ شيئًا حتى نعلم علامَ يموتُ ..؟

فإن خُتِم له بخيرٍ عَلِمْنا أنه أصاب خيرًا وإن خُتِم له بشرٍّ خِفْنا عليه) .

عليك رضوانُ الله ورحمتُه يا مَنْ كنتَ أوَّل مجاهرٍ بالقرآنِ بعد رسولِ الله .